من وحي الغمزة القاصية :

قطيع الصيف في باريس

للدكتور علي شرف الدين

في كل عام — وفي مستهل الصيف خاصة — يقبل على باريس هذا القطيع من أطراف أوروبا . مختلفات الجنس واللغة ، متباينات الأعمار والثقافة ، في عيونهن غرارة ، وخلف الأجفان مستقبل حافل بالدموع ، ما عرفته ولا فكرن فيه ، وفي إشاراتهن براءة ، وما تصيب الفواجع غالبا غير القلب البرئ ، كأنما تحب السماء هذه القلوب ، فهي تمتحنها بالآلام لتزيد في طهارتها قبل أن ترفع إليها

أطلقهن الرعاة من مراعيها الآمنة ، رأبعن لهن — وهن الناشئات — أن يقبل عليهن المساء ؛ وهن في غير مراح الحقل بعيدات عن سمع الراعي ونظره ، وما بالغ من أطلقهن في الثقة ، ولا أسرف في حسن الظن ، ففي قلوبهن من وحي الفطرة الأصيلة عصمة ، وفي آذانهن من ترانيم الكنيسة صدى رائع يغلب كل الأصداء ، ولكنها سنة الشباب والحب ، جديدة في كل عصر ، وإن أعادت نفس القصة في كل جيل

أقامت لهن باريس معارض للفن ومناهل للأدب ، وحشدت لهذا أقوى ما يأسر النفس والعين . يمضي الصيف وهي مع الرعيل في الغدو والرواح ، يحديها رسول الأمن في الجماعة ، ويملأ عينيها نور الفرح بما ترى وتسمع ، لا تلبي غير نداء المعرفة ، ولا تغشى غير المواطن الآمنة ، في صالات الموسيقى ، وفي لكسمبور ، وتحت قباب البانثيون . . .

فإذا تقدمت بهن الإقامة رأيت شيئا جديداً : رأيت أن القطيع قد استحال إلى أسراب ، ثم استحال السرب أخيراً إلى « الغمزة القاصية » ؛ واسكن في صحبة جديد ، ولا تشك حين تراهما في أن ملا كما يحرس هذا الحب الجديد ، فما تزال سمات الفطرة في الوجوه تنادي بنبل العاطفة ، وما يزال في العيون شعاع يكشف عن قلب برئ . ومن ذا الذي لا يبارك على حب تذكيه غرارة السن ، ويرعاه من العاطفة ميل ساذج صريح ؟

ويمضي الصيف فيبقى نصف القطيع قائما في باريس لا يريم . ويتقدم الزمن قليلا ، فإذا جدة الحب قد أخذت تبلى ، وإذا بهجة اليسار قد أخذت تنطفئ ، ليأخذ مكانها ظلام الحاجة ، وإذا هذه الغلائل البيضاء التي كانت ترف بالأمس على محياها كل من النور كما يرف جناح الحمائم السابحة في صبح الربيع — قد استطال الفقر في ذيولها ، كما استطال الحزن والألم في محياها كلها . بقية من جمال يغزوها الهم الناصب ، والضنى الملح ، في انتقال مفاجئ من حياة إلى حياة ، ما أبعد كلا منهما عن الأخرى

هذه الدالة التي أكرمها الفلاح ، وأقامها في الحقل (الآمن) تستملي حياة الدعة والسعادة ، وتضفي على الحقل ربيعا أجمل من ربيع مروجه ، قد أصبحت تعمل في حقل آخر ، عمل الأجير لا المالك ، ويهولك ما ترى حين ترى أن هذه الدالة التي لم تجاوز العشرين قد أخذت تؤجر في الحقول . . . لم تعد تصغي للموسيقى ولا تغشى محاضرة ، ولا تحفل لهذا التاريخ الرابض في معالم باريس ، ولكنها في مقاهي سان جرمان مع القاضيات من الأهل ، الساخطات على الحياة ، وأخيراً في كهوف الليل الحمراء على ضفة السين ...

إن لها شخصية كما يدعي صاحبها الذي أطلقها من المرعى « الآمن » فهو لا يسأل — ولا يجب أن يسأل — كيف تعيش ؟ وهي « الحضرية » الدالة التي ما عرفت العمل ، وما خلقت إلا لتضفي النور على ما حولها ... إنها شخصية تمنحها إياها الحضارة في تمام العشرين ، وقد نسيت الحضارة أن الزهرة هي الزهرة ، في أول الربيع ، وفي عنفوانه ، وفي نهايته ، وأن الطبيعة عرفت هذا فنثرت من حولها الشوك لترهب القلوب الطامعة ، وتدفع الأيدي من جناها . وتمر بك هذه الدالة التي كنت تسعد بالنظر

إليها . فتعاف أن تراها رعة وإشفاقا ، ولـكأن هذا العربى قد أرادها فى هذه الصورة القوية من شعره

كنت مشفوفابكم إذ كنتم شجراً لا تبلغ الطير ذراها
لا تبيت الليل إلا حولها حرس ترشح بالموت ظباها
وإذا مدت إلى أغصانها كف جان قطعت دون جناها
فتراخى الأمرحتى أصبحت هملا يطمع فيها من يراها

ربح المسيحية وربح الشرق منك يا أوربا ! ألا تذكرين حديث « الغنمة الضالة » فى الإنجيل ؟ ألم يطالب إلى الراعى أن يبحث عنها حتى ولو تعرض القطيع كله للضياع ؟ إنه يعلمك كيف تكون القيم الإنسانية عندك خيراً من « المصلحة » وكيف تحرصين على الاستجابة لهواتف الروحية ، وإن لم تدع إليها « الغنمة » . إن القطيع من غير شك خير من الواحدة ، ولـكنها الساعة الرحيمة التى تكسر كل مقاييس الموازنة ، وتحطم كل موازين المقارنة

هى إذا « الشخصية » أو « الحرية » أو « سن الرشد » وغير هذا من الكلمات التى تزعمينها فى بطون القواميس - تقيمين منها قانونا حين شعرت بالاستخذاء والظلم ، سن الرشد !! المعروف أو سن الرشد الحقيقية تبتدئ منذ الميلاد ، وتنتهى غالبا قبيل العشرين أو عندها ، وعند العشرين تبتدئ سن الرعاية والملاحظة . . .

على أن لك فى سن الرشد رأيا غريبا - رأى يتغير حسب المصلحة والعصبية الشعوبية : تمطين سن الرشد للأفراد ، وتحرمين منها الجماعات ، تمطينها للغنمة القاصية وتمنعين منها الجماعة تستمد القوة والرشد من جماعتها وائتلافها . ألـكم تمدين إلى القطيع تمزقين من وحدته حتى استحال إلى غنمات قاصية لا تكاد إحداها تسمع نداء الأخرى ، ثم زعمت لنفسك عليها سلطانا فى دعوى باطلة مزورة ، تارة (برسالة الحضارة) وأخرى بأنها لم تبلغ سن الرشد ، وقد كان فى اجتماعها وتآلفها الرشد كل الرشد ، ولـكنها المصلحة التى أنكرت فيها حقوق الإنسانية وربح المسيحية وربح الشرق منك يا أوروبا !

أسرفت فى الغرور حتى قتلت فى نفوس أبنائك الإحساس بالغرور ، وأقمت للوثنية هيا كل مكذوبة ، تقدمين لها قرابين دامية ، هى أشلاء ضمير ممزق فى معركة صرعت فيها (الغنمة) كل هواتف الروح ، وما رضيت أن تشهدى وحدك هذه الأصنام بالأمس فى قصر شايو ، ولـكنك تدعين معك فرائس السياسة ، وغنائم القوة ، ليشهدوا مصارع حقوقهم وأمانيهم . . .

حتى (الإنيسكو) هذا الرجل الوقور ، سخرت منه أوربا و (ضحكت عليه) فغرزت فى عمامته أعلام الشعوب ترفرف متساوية متكافئة ، نعم نعم ترفرف متساوية متكافئة فى (الهواء) تقولين له : (ما أحوجنا إلى رأيك فى التربية والتعليم) ثم تسرين له فى أذنه : (رسالتك شاقة ، وإنك لتعرف ما بين السطور ، فـكن ماهر النفاذ ، لطيف الأداء ، فما أحوجك إلى (الـكياسة) لنصل من التربية إلى (. . . .) فيبتسم هذا الرجل الوقور بينما يفرك أطراف لحيته السـ تارة « إننى خبير (بالسجمة) المقصودة ، وما أيسر أن نجمعهم على ضرب واحد من التعليم ، ومنهج متحد من التربية ، حتى تلتقى الأهواء ، وتتآلف النزعات ، وهناك تتم (السجمة المفقودة) ، وقد نسيت أوروبا ونسى معها هذا الرجل شبه الوقور أن للشعوب لم تكن شعوبا لأن الأنهار تفصلها أو لأن الجبال تحد مابين تخومها ، ولـكن الشعوب كانت شعوبا لأن لـكل شعب أمنية يفيض بها قلبه ، أمنية تستغل حياته وتأخذها من أقطارها لا تلبث أن تستحيل إلى مادة حية فى أغنية خالدة مقدسة . مالى أنسيت الحديث ؟ لقيتها مرتين مواظبة على محاضرات (أحلام معتزل) لجان جاك روسو . إنها تلتمس عنده فى ساعات عزلته ، ما يمسح على جراح نفسها . إنها قد نسيت الماضى ، الماضى البعيد والقريب ، وما كانت تحب أن تثير هذى الذكرى ، فإنها قد تجاوزت منطقة الألم ، واستراحت إلى نسيان يوشك أن يسبغ الطمأنينة والهدوء على قلبها ، وكانت نفسها صريحة لم تكسر ، مشرقة لم تنطفئ ، وإن كان يسبح فى جبينها الهادئ شعاع

شاحب ترف على حواشيه ذكريات خافتة ، تدافعها بالصبر والأمل ، وقوة الإيمان بحياة جديدة

وكان شأني يضيق بمعاونة تفنيدها ، ولم أجد غير سيدة تركية هي وزوجها مثل عال لحضارة الإسلام في باريس ، قالت لها : إنها كما ترين حزينة كسيرة وما أحسبها تحسن الكثير من عمل المنزل ، وما أحسبها إلا حملا عليك ان تضيقي به ، ولها من ثقافتها في منزل شرقي ما يهيء لها الحياة فيه ، فطالعت السيدة أساريرو وجهها ، فلم تشهد تمردا ، ولم تر أثرا لهذه النكسة التي تطبع على وجوه المغلوبين في حياتهم الساخطين عليها ، فابتدرت قائلة (فابنتي إليها منذ اليوم) ثم استدركت مستعجلة (معلمتها لا خادمتها) ثم التفتت إلى زوجها كي تطمئنه على نهوضها بحياتها (وعندي لها من ستسعدهن ويسعدن بها ، وان تضيق بحياتها من نشأت في سويسرا الفرنسية . .)

مضت أيام لقيتهم بعدها ، وكان السيد التركي كعادته يقضي الساعات في مكتبته ، رأيته أشبه ما يكون بالمستغرق في حلم . فلم أشأ أن أقطع عليه تأمله ، حتى انتبه متهلل الوجه مسروراً « إنه شعر حسن جميل » قلت لمن ؟ قال لشاعر تركيا ارف حكمت المرسكي ، ثم أقبل يقرأ ، ولكن صوتا آخر قطع عليه قراءته ، صوت أحسب أني سمعته قبل اليوم ، فاتجهت نحوه فإذا في الحجرة القريبة منا قد جلست هيلين وإلى جوارها طفلة في العاشرة من عمرها ، ومن حولها ثلاثة من فتيات تركيا الحديثة ، أقبلن للدراسة في باريس ، ولا غنى لهن عن دراسة اللغة ، سمعتها تملي عليهن قطعة لأندريه جيد ، يصف فيها سمات الإدراك والفهم ، تجري في أسارير طفلة بكماء قام على تربيتها قس سويسري ، حتى أدركت الأصوات وفهمت الحديث يجري من حولها « ... لقد نبضت سماتها بالحياة فجأة ، وجرى في جبينها إشراق أشبه ما يكون بالشعاع الذي يسوق الفجر في أعالي الألب والذي ترف له القمة المتوجة بالثلوج .. لم يكن ابتساما ، ولكنه لون من خواطر المتصوفة ... لم يكن قط ما زادها في هذه اللحظة معرفة وإدراكا أكثر منه حبا وهياما ... »

قلت للسيد « لست أدري أيهما خير من الآخر : الباستير السويسري مع جرترود ، أم السيد التركي مع هيلين ؟ » قال « الباستير من غير شك لأن جرترود قد خرجت على يديه من الصمت إلى الإفصاح .. أما أنا فلم أصنع إلا ما يجب لها ، وما هو من حقها في الحياة ، وخير منهما جميعا المرسكي الشاعر ، ثم أعاد إلى يده ديوانه وأخذ يترجم عن التركية :

« ليس حتما أن تنتقل النفس من النور إلى الظلمة ، لأن النور طبيعتها ففيم التحول وهي مستريحة إليه » « ومن الحتم أن تنتقل من الظلمة إلى النور ليس فقط لأنهـــا تشعر بالغربة والإيحاش ، ولكن لأن وطنها الأول يحمى هو الآخر وطابه »

باريس على شرف الدين

دكتور في الأدب الفرنسي البحت من السوربون

ظهرت الطبعة الرابعة الجديدة

للمجلد الاول من كتاب

وحي الرسالة

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

طبع طبعاً أنيقا على ورق صقيل وقد بلغت عدد صفحاته خمسمائة صفحة ونيفاً . وهو يطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد